الفصل الثانى

بنجالى فى أمريكا

كنت دائمًا أتوقع لنفسى أن أصير معلمًا، ففى طفولتى كنت أحب التدريس لإخوتى الصغار، مع إصرارى أن يحصلوا على الدرجات النهائية فى مدرستهم. وبالفعل فقد طلب منى وأنا فى الواحدة والعشرين من عمرى تدريس الاقتصاد فى كلية بشيتاجونج بعد تخرجى مباشرة.

وقد تأسست هذه الكلية عام ١٨٣٦ أيام الحكم البريطانى، وكانت واحدة من أكثر الكليات احترامًا فى شبه القارة الهندية. وامتدت دراستى بهذه الكلية لتشمل الفترة من ١٩٦١ إلى ١٩٦٥م، حاولت خلالها القيام ببعض الأعمال التجارية الخاصة بى؛ حيث لاحظت أن البضائع المغلفة المتوفرة فى الأسواق عادة ما تكون مستوردة من باكستان الغربية، بينما لا نمتلك نحن فى الجزء الشرقى من البلاد أية إمكانات لإنتاج علب ومواد التغليف، فعمدت إلى إقناع والدى لكى يسمح لى بإقامة مشروع للتعبئة والطباعة، فقمت بعمل دراسة جدوى للمشروع وتقدمت بطلب للحصول على قرض من البنك الصناعى الحكومى. وفى هذا التوقيت كانت فئة قليلة فقط من أصحاب الأعمال البنجاليين ترغب فى إقامة مشروعات صناعية؛ الأمر الذى أدى إلى قبول طلب القرض الذى قدمته للبنك فى الحال. وبالفعل سرعان ما قمت بإنشاء مشروعى

للتعبئة والطباعة والذى ساعد على تشغيل مائة عامل، وبمرور الوقت نجح المشروع فى تحقيق معدلات ربح مرتفعة سنويّا.

كره والدى الذى كان رئيسًا لمجلس الإدارة أن تقوم الشركة بالاقتراض من البنك، فكانت فكرة قيامى بدفع فوائد مقابل حصولى على القروض تثير حافظته على نحو كان يدفعنى إلى رد القروض قبل موعدها المحدد، وبهذا الشكل أصبحنا أحد القلائل الذين يقومون برد القروض قبل موعدها فى بنجلاديش فى ذلك الوقت. الأمر الذى دفع البنك إلى إقراضنا عشرة ملايين «تاكا» فى الحال لإقامة مشروع لصناعة الورق، والذى حرصت على ألا يعلم عنه والدى شيئًا.

وكان مركز صناعة مواد التعبئة يقع فى لاهور غرب پاكستان، ولكنى كبنجالى صميم أدركت إمكانية قيامنا بتصنيع منتجاتنا هذه بتكلفة أقل فى پاكستان الشرقية. وتنوعت منتجاتنا فشملت عبوات السجائر والصناديق والورق المقوى وعبوات أدوات التجميل والكروت وورق النتائج والكتب. ولم تشكل مسألة حصولى على مكاسب مادية أمرًا ذا أهمية بالنسبة لى، ولكن نجاح المشروع أقنعنى وعائلتى بإمكانية نجاحى فى أى مشروع آخر ما دامت العزيمة متوفرة.

وبالرغم من نجاحى فى مجال الأعمال، إلا أن رغبتى فى الدراسة والتدريس استمرت، ومن ثم فقد انتهزت الفرصة عندما عرضت علىّ منحة من هيئة الفولبرايت للحصول على درجة الدكتوراه من الولايات المتحدة الأمريكية. وكانت هذه ثالث رحلاتى إلى الخارج؛ فالأولى كانت عندما سافرت إلى شلالات نياجرا بكندا لحضور مهرجان للكشافة عام ١٩٥٥م، والرحلة الثانية كانت إلى اليابان والفلپين وذلك عام ١٩٥٩م، ولكن فى رحلتى الثالثة هذه كنت وحدى تمامًا، وكنت بصدد العديد من المفاجآت.

أول صدمة تلقيتها كانت فى حرم «جامعة كلورادو» فى «بولدر» وتمثلت فى قيام الطلاب بمناداة أساتذتهم بأسمائهم الأولى؛ الأمر الذى لم نعتده فى بنجلاديش حيث كان الفرد منا لا يجرؤ على الحديث إلى الأستاذ إلا إذا سمح له بذلك أولاً، وعندها يتحدث إليه بأسلوب غاية فى الاحترام. أما الوضع فى «بولدر» فقد كان مختلفًا؛

فالأساتذة يعاملون تلامذتهم كأنهم أصدقاء لهم، فكثيراً ما رأيت الأساتذة والطلاب ممددين على الحشائش وهم حفاة يتشاركون فى الطعام والمزاح والثرثرة فى ألفة بعيدة كل البعد عما يمكن حدوثه فى بنجلاديش.

صدمة أخرى تلقيتها تمثلت فى الاختلاط بين الشبان والشابات فى كلورادو، فقد كنت فى غاية الخجل والإحراج، فلم أكن أدرى أين أوجه بصرى. فى شيتاجونج ـ فى المقابل ـ كانت البنات تمثلن أقلية محدودة؛ فمقابل ثمانمائة من الطلاب الذكور لم يتجاوز عدد البنات مائة وخمسين طالبة، كما أنهن كن دومًا معزولات داخل حجرات دراسية خاصة بالبنات، والتى كان محظوراً على البنين الاقتراب منها. وكانت مشاركتهن فى اتحادات الطلاب وغيرها من الأنشطة الطلابية محدودة للغاية؛ فعلى سبيل المثال عندما كنا نقوم بعرض مسرحية ما على خشبة المسرح لم يكن مسموحًا للبنات بالمشاركة؛ ولذلك كان بعض الأولاد يلجئون إلى لبس ملابس نسائية ووضع بعض مساحيق التجميل ليقوموا بالأدوار النسائية.

وكانت طالباتى فى كلية شيتاجونج فى غاية الخجل، فعندما كان يحين موعد المحاضرة كن يتجمعن أمام مكتب الأساتذة ـ حيث أكون ـ ثم يقمن باتباعى إلى قاعة الدرس ممسكات بكتبهن وناظرات إلى أقدامهن ليتجنبن تحديق الأولاد بهن. وفى داخل قاعة الدرس كن يجلسن بعيدات عن الأولاد، كما كنت أتحاشى توجيه الأسئلة التى قد تتسبب فى إحراجهن أمام زملائهن، ولم أكن أجرؤ على الحديث إليهن خارج قاعة الدرس.

وفى الواقع قد كنت أنا نفسى أشعر بالخجل أمام النساء، فكنت أحاول تجاهلهن بالكامل، فيا لهول رعبى عند وصولى إلى الولايات المتحدة فى صيف ١٩٦٥م، حيث كانت موسيقى الروك تعم الحرم الجامعى والبنات جالسات وهن حافيات على الحشائش ويضحكن وهن مستمتعات بحرارة الشمس. . . . . لقد كنت حينها شديد التوتر والعصبية، وحاولت عدم النظر إليهن. ولكنى أحببت الجلوس فى مركز الطلاب مراقبًا إياهم جيئة وذهابًا وهم يتسامرون ويضحكون ويأكلون لابسين ثيابهم المجنونة. وأحسست أن الشباب الأمريكى شباب أقوياء وممتلئون بالحيوية والنشاط، ولكنهم فى الجامعة كانوا فى السن الذى يميلون فيه إلى تجريب أنواع من المخدرات

والخمور، ولكن شخصيتى الخجولة أبعدتنى عن مثل هذه التوجهات، ففضلت المكوث فى غرفتى أقضى وقتى فى الدراسة ومشاهدة التلفاز.

فى دكا، لم يظهر التلفاز إلا عام ١٩٦٤م؛ ولذا لم أكن قد اعتدته لدى ذهابى إلى الولايات المتحدة، ولكن سرعان ما أصبحت مدمنًا له فى «بولدر»، وكان أفضل برامجى برنامج «ستون دقيقة» وإن كنت لم أقتصر على مشاهدته، فكنت أشاهد أيضًا كل الحلقات السخيفة مثل: أنا أحب لوسى، وأرض جليجان، وأبطال هوجو. واكتشفت أنى وحتى اليوم أتمكن من الكلام والتفكير بشكل أكثر وضوحًا عندما يكون التلفاز يعمل بجوارى.

وتزامنت هذه الفترة بتصاعد الحرب فى ڤيتنام، فقمت وغيرى من الطلاب المغتربين بتنظيم مسيرات منددة بالحرب، وعلى الرغم من قيامى بالتصويت ضد الحرب إلا أنى حاولت التفكير بعقل متفتح ومتجنبا الانجراف وراء تبنى الشعارات التى كانت سائدة وقتها، أو وراء أفكار مجموعة فكرية بعينها. فلم يزل رأيى إيجابيًا بشأن الولايات المتحدة؛ الأمر الذى لم يستطع الكثير من أصدقائى البنجال إيجاد مبرر له. أما الموقف فى دكا فكان يتمثل فى وجود قدر كبير من العداء تجاه الولايات المتحدة، فخرج الطلاب فى مسيرات غاضبة منددين بالولايات المتحدة ووصفوها «بالرأسمالية القذرة» وصائحين: «يا أمريكى، عد لبلدك».

وفى الولايات المتحدة، سرعان ما تعلمت الاستمتاع بالقدر الهائل من الحرية الشخصية المتاحة لكل فرد، فكانت دراستى تسير على نحو مرضٍ، وتمكنت بجانب ذلك من تعلم الرقص، كما اعتدت على رؤية الناس تشرب الخمورً والبيرة وغيرها من المسكرات القوية، وتأثرت كثيرًا وتمكنت من الاستفادة من الأحداث اليومية الصغيرة التى تمر بى؛ فلن أنسى مطلقًا المرة الأولى التى ذهبت فيها إلى أحد المطاعم فى «بولدر» لأجد النادلة وقد ابتسمت ابتسامة عريضة قائلة: مرحبًا بك، أنا أدعى شيريل، وقدمت لى كوبًا من الماء به الكثير من قطع الثلج، فتبادر إلى ذهنى وقتها الوضع فى بلدى، وكذا فى بلاد شرق آسيا، حيث لا يجرؤ أحد على معاملة الغرباء بمثل هذا الكم من الانفتاح والصراحة.

أما بالنسبة لمذاق الأكل الأمريكى، فقد افتقدت بشدة أكل والدتى المليء بالبهارات الحارة، فبالرغم من أنى أحببت المحمرات الفرنسية، والهامبرجر، وشرائح البطاطس بالكاتشب؛ إلا أنى سرعان ما مللت الأكل الأمريكى ووددت لو أضحى بأى شيء فى العالم مقابل أن آكل الأرز واللحم البنجالى اللذيذ.

وانقضت فترة الصيف سريعًا فى «بولدر» وكنت فيها محاطًا بطلاب من مختلف الجنسيات ومستمتعًا بالحرم الجامعى المضاء طبيعيًا بضوء الشمس على نحو جذاب. وفى الشتاء، استلزمت منحتى الدراسية قيامى بالدراسة فى جامعة «فاندربيلت» بولاية «تنيسى» التى شهدت فيها تجربة مختلفة تمامًا؛ فمدينة «ناشفيل» كانت كئيبة نوعًا ما وغير جذابة مقارنة بكلورادو المتفتحة، كما أن جامعة فاندربيلت كانت حديثة العهد بالانفتاح على الجنسيات المختلفة، وحتى المطعم الصغير الذى كنت أقصده بها أصبح يقدم خدمته لذوى البشرة البيضاء فقط. وكان بالجامعة القليل من الطلاب المغتربين؛ وإن لم يكن بينهم أى بنجالى مما أشعرنى بالوحدة، وبشدة الحنين إلى بلدى.

الشتاء كان قارصًا فى ناشفيل، ومكان سكننا (ويسلى هول) كان ذا رائحة غير محببة، مما جعلنا نطلق عليه «جحيم ويسلى» (ويسلى هل). وكانت مواسير التدفئة تحدث ضجيجًا طوال الليل، وأكشاك الاستحمام كانت عتيقة ومفتوحة، مما جعلنى أشعر بالخجل والحرج البالغين، وكنت اصطحبت معى للاستحمام الـ «لانجى» الخاص بى؛ وهو عبارة عن قطعة قماش طويلة يلبسها البنجاليون كتنورة.

وفى تلك السنة كنت الطالب الوحيد الحاصل على منحة دراسية من هيئة الفولبرايت بجامعة فاندربيلت. فى البدء شعرت بالملل من الدراسة؛ فكان برنامج «التنمية الاقتصادية» الذى أدرسه سطحيًا للغاية مقارنة بمقدار التقدم الذى أحرزته فى عملى التجارى ببنجلاديش. ولكن لحسن حظى تمكنت من البدء فى برنامج الدكتوراه تحت إشراف بروفيسور رومانى مشهور يدعى نيكولاس چورجسكو روچين. بروفيسور چورجسكو روچين كان معروفًا بشخصيته المرعبة داخل الجامعة؛ فقد تحكم بالكثير من الطلاب وأشيع عنه أنه أطاح بمستقبلهم العلمى. ولكنه بالنسبة لى كان رائعًا؛ فقد علمنى بعض الدروس الصغيرة التى لن أنساها مطلقًا، وبالذات فى مجال النماذج الاقتصادية التى علمنيها، والتى مكنتنى فيما بعد من تأسيس بنك جرامين.

أدركت من خلال توجيهاته لى أنه ليس هناك ضرورة كبيرة لحفظ واسترجاع النظريات الاقتصادية، فالأمر الأكثر أهمية يتمثل فى فهم واستيعاب الفرضيات الضمنية التى تمثل أساس عمل أية نظرية. كما تعلمت منه أن الكثير من الأشياء ليست بذات القدر من التعقيد الذى قد تبدو به؛ وإنما هى فقط عجرفتنا التى تصور لنا إجابات أو تفسيرات معقدة لما نلاحظه من مشكلات هى فى واقع الأمر بسيطة.

* * *

عندما طرت إلى الولايات المتحدة فى منحة دراسية، لم تكن لدىَّ أدنى نية للبحث عن زوجة أمريكية، فقد كنت مقتنعًا أنه عندما أفكر فى موضوع الزواج، فإننى سوف ألجأ إلى طريقة الزواج التقليدية التى تزوج بها كل من حولى؛ أضف إلى هذا خجلى ورعبى وافتقارى إلى الخبرة فيما يختص بالنساء، حيث يتسم أهل البنجال عامة ـ وخاصة أهل شيتاجونج المتدينون حيث نشأت ـ بالحكمة والتروى والميل إلى المحافظة؛ فلم يناقش أفراد أسرتى قط أية موضوعات حساسة بشكل علنى وصريح.

أتذكر عام ١٩٦٧م أننى كنت فى مكتبة جامعة فاندربيلت، واقتربت منى فتاة جميلة ذات شعر أحمر يصل حتى كتفيها، ولها عينان زرقاوان، وسألتنى: من أى بلد جئت؟ ولكنى لم أكن مستعدّا بتاتًا لهذه المباغتة، فأجبت فى عصبية وتوتر: من باكستان. وكانت الفتاة ودودة وعفوية ولديها اهتمام للتعرف على وبما أمثله من ثقافة مغايرة. كانت الفتاة تدعى «فيرا فوروستينكو» وهى تقوم بدراسة الأدب الروسى للحصول على درجة الماچستير، وهى روسية المولد، ولكنها أتت وأسرتها إلى الولايات المتحدة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية واستقروا فى مدينة «ترينتون» بولاية نيوچيرسى.

أحسست باستلطاف نحوها على الفور. وبعد عامين من لقائنا رحلت «فيرا» عن تنياسى عائدة إلى نيوچيرسى، وقد كنت فى ذلك الحين أخطط للعودة إلى بنجلاديش. قالت فيرا: «أحب الذهاب معك للعيش فى بنجلاديش».

أجبت قائلاً: «لا يمكنك ذلك»، أتت إجابتى تحمل قدرًا كبيرًا من الصلف

والعناد، وعللت لها رفضى بقولى «إنها بلد استوائى ، ذات ثقافة مختلفة؛ فالنساء هناك لا يعاملن بشكل لائق، وليس لهن من الحقوق التى لديهن هنا».

فأجابت فى إصرار: «ولكنى سوف أعتاد الأمر».

واستمرت فيرا فى الكتابة لى والاتصال بى لمناقشة هذا الموضوع، وفى كل مرة أجيبها بعدم إمكانية حدوث هذا الأمر. وكنت أرفض متعللاً بأسباب مختلفة، ولكنها كانت دائمًا تفند لى الحجج التى كنت أدعيها. وأخيرًا نجحت فيرا فى جعلى أعدل عن رأيى. وفى عام ١٩٧٠م ، تزوجت من «فيرا» وانتقلنا إلى «مور فريز بورو» وهى قرية تبعد خمسين ميلاً جنوب « ناشفيل » حيث كنت أعمل بالتدريس فى جامعة «ميدل تنيسى » .

ومرت الحياة فى هدوء وسلام حتى يوم الخامس والعشرين من شهر مارس من عام ١٩٧١م، عندما عدت إلى شقتى لتناول الغذاء أدرت جهاز الراديو لأستمع إلى آخر الأخبار الآتية من «دكا»، فعرفت فى خبر موجز أن الجيش الپاكستانى قام بمحاصرة كل المعارضين المنددين بالحكومة الپاكستانية، وقيام الشيخ «مجيب الرحمن» قائد حركة الاستقلال بالفرار. كنت وقتها أقوم بتبديل ملابسى ، ولكنى توقفت واندفعت إلى الهاتف لأتصل بالدكتور « زيللور رحمان عطار» فى مدينة « ناشفيل» وطلبت منه أن يستمع إلى المذياع والاتصال بجميع البنجاليين الذين يعرفهم فى المنطقة. وفى غضون ساعة أصبحت فى منزل « زيللور » والذى نجح فى تجميع ستة من البنجاليين المنتمين إلى پاكستان الشرقية. وبدأنا فى تجميع الأخبار من جميع المصادر؛ ولكن لم يكن هناك ثمة إجماع على حقيقة الوضع فى پاكستان، وإن كانت الحقيقة الوحيدة الجلية هى رغبة الجيش الپاكستانى فى سحق جميع البنجاليين دفعة واحدة وإلى الأبد.

وكان ضمن المجموعة فى منزل « زيللور» أحد أنصار حزب جماعة الإسلاميين المحافظين والذى رأى ضرورة عدم التسرع فى الحكم على الأحداث؛ فلا بد من الانتظار لنتبين حقيقة الوضع. ولكنى لم أكن أوافقه الرأى؛ فلدينا كل ما نحتاجه من تفاصيل لما حدث. فأعلنت قائلاً: « إن بنجلاديش قد أعلنت استقلالها، فيتحتم علينا الآن أن نحدد انتماءنا وما إذا كنا مواطنين حقيقيين لهذه الدولة الجديدة؛ فلكلٍّ مطلق

الحق فى تحديد اختياره، وأنا أعلن قرارى بأن انتمائى هو لبنجلاديش، فلو أراد أحدٌ موافقتى على خيارى فله مطلق الحرية، ولمن هم لا يعبرون عن انتمائهم ونصرتهم لبنجلاديش، فإنى أعلن أن الپاكستانى هو العدو بالنسبة لموطنى بنجلاديش».

وساد صمت مطبق أرجاء المكان، فالكل قد أخذ على حين غرة من الطريقة التى صغت بها سؤالى عن قرارهم بشأن تحديد انتمائهم. وتقدمت باقتراح عن تشكيل لجنة تضم المواطنين البنجال؛ وفى الحال تم ذلك، وقمنا بإصدار صحيفة مطبوعة تم توزيعها فى ناشفيل وعبر الوسائل الإلكترونية. وقررنا القيام بثلاثة أمور:

١ ـ محاولة تنظيم لقاءات مع جميع المذيعين الإخباريين فى محطات البث التليفزيونى المحلية، وكذا جميع محررى الصحف المحلية لشرح وإعلان موقفنا، ولطلب الدعم والمساندة لقضية بنجلاديش.

٢ ـ التبرع بألف دولار كمنحة من كل فرد منا كنواة لتكوين صندوق مالى يدعم القضية.

٣ ـ التبرع للصندوق بما يوازى عشرة فى المائة من رواتبنا الشهرية بشكل مستمر حتى حصول بنجلاديش على استقلالها؛ والقيام بزيادة النسبة المخصصة كلما استدعى الأمر ذلك.

وقام كل واحد منا إما بالسحب من حسابه أو بالاقتراض من الآخرين وذلك لتكوين المبلغ المبدئى. وفى اليوم التالى ـ يوم السابع والعشرين من مارس ـ كنا قد رتبنا لقاءات مع محطات التلفاز والصحف المحلية. وتم انتخابى لمنصب أمين «لجنة المواطنين البنجال» والمتحدث الرسمى للمجموعة. وكانت محطات التلفاز المحلى تبدى اهتماماً جليّا بالقضية؛ فنادراً ما كانت تسمح لهم الظروف بالحصول على سبق صحفى فيما يخص الأخبار العالمية، فبالنسبة لهم كنا نعبر عن قضية ساخنة لما يجرى على الساحة الدولية من وجهة نظر أناس محليين. وبالنسبة لى، فقد كنت أعمل وقتها أستاذاً بإحدى الجامعات المحلية، أما الخمسة الآخرون فكانوا أطباء بشريين فى مستشفيات المدينة، وهكذا كنا نعلن عن أنفسنا كمواطنين لدولة لم تولد بعد.

وفى مساء أحد الأيام تجمعنا كلنا فى منزل «زيللور» لمشاهدة نشرة الأخبار المحلية المسائية؛ والتى تم خلالها عرض المقابلة التى أجريت معى بالكامل. وكان أحد

الأسئلة التى وجهها لى المذيع «هل من رسالة تريد توجيهها إلى أهل ولاية تنيسى؟» فأجبت: نعم لدىَّ رسالة، من فضلكم اكتبوا إلى ممثليكم فى كلٍّ من مجلسى الكونجرس ـ النواب والشيوخ ـ فى الحال تطالبوهم بإيقاف المعونات العسكرية إلى پاكستان؛ فأسلحتكم وذخائركم الحربية تستخدم لقتل أبرياء غير مسلحين من مواطنى بنجلاديش. من فضلكم طالبوا رئيسكم بممارسة الضغوط على پاكستان من أجل إيقاف جريمة التطهير العرقى فى بنجلاديش».

وكم كنت سعيداً بالتعاون ورد الفعل السريع الذى أظهره أفراد المجموعة الستة على اختلاف توجهاتهم السياسية وخلفياتهم الاجتماعية والاقتصادية. أما الآن، فنحن نريد أن نعرف كيف يفكر وماذا يفعل جميع البنجاليين فى أنحاء الولايات المتحدة، فقررنا الاتصال بالأستاذ «عناية كريم» ـ وهو مسئول بنجالى يعمل بالسفارة الپاكستانية ـ والذى زودنا ببعض المعلومات الهامة. أولها أنه سيتم تنظيم مظاهرة تندد باعتداءات الجيش الپاكستانى على المدنيين يوم التاسع والعشرين من شهر مارس فى «كاپيتول هيل» بواشنطن، وثانيها أن جمهوراً كبيراً من البنجاليين سوف يأتون من نيويورك للانضمام للمظاهرة ـ والتى عرض علينا الانضمام إليها. ورغم أن باقى أفراد المجموعة لم يتمكنوا من الذهاب لواشنطن نظراً لمسئوليات عملهم فى المستشفيات التى يعملون بها، فقد أعلنت نيتى للسفر فى اليوم التالى وعلى نفقتى الخاصة. وتم الاتفاق على إمكانية استخدامى لمبلغ الستة آلاف دولار الذى قمنا بتجميعه فى حال استدعت الظروف ذلك.

أين يمكن أن أقيم فى واشنطن وأنا لا أعرف أحداً فيها؟ رغم أنى لم يسبق لى مقابلة «عناية كريم» إلا أنه يبدو كشخص ودود؛ فلماذا ـ إذن ـ لا أحاول الاتصال به؟ وبالفعل اتصلت به واقترحت عليه استضافتى فى اليوم التالى- إذا لم يكن هناك مانع. ولكنه فى الحال رد علىَّ وطلب منى القدوم فوراً. ولكم أدهشنى كرم ضيافته، فأدركت أن الأزمة التى نمر بها ساعدت على توحيد صفوف كل البنجاليين. وقضينا الليلة نتابع جميع المحطات الإذاعية مستخدمين مذياع «زيللور» الضخم ذا الموجات القصيرة. وما بين عناوين الأخبار كنا نتناول طعاماً لذيذاً قامت زوجة «زيللور» الأمريكية ـ چوان ـ بتقديمه لنا.

كنا نتساءل عما يكون قد حدث للشيخ (*). وأخيراً علمنا بأنه تم القبض عليه فى محطة سكة حديد شيتاجونج بينما كان يفر هارباً من الجيش (ولكنه كان فى الواقع قد تم القبض عليه فى منزله بدكا). وانخرطنا فى البكاء لدى سماعنا هذا الخبر؛ فقد انهار كل ما صوره لنا خيالنا عن قيادة الشيخ «مجيب»، لدولتنا إلى النصر. وبدأنا فى التساؤل عن مصير الشيخ مجيب، وما الذى سيفعله معه الجيش؟ فهل سيعيدونه إلى دكا ويعدمونه رميًا بالرصاص، أم سيقومون بشنقه، أم بتعذيبه حتى الموت؟

وسافرت متجهًا إلى واشنطن مع الساعات الأولى من يوم الثامن والعشرين من مارس، ووصلت إلى المنزل الجميل للأستاذ «عناية» فى ساعة متأخرة من مساء اليوم نفسه. وقامت زوجة « عناية» ـ وهى مثلى من شيتاجونج ـ بالترحيب بى بحرارة بالغة. كان يومًا مليئًا بالأحداث؛ فلم يتوقف الهاتف عن الرنين، بعض المكالمات كانت محلية وبعضها من السفارات الپاكستانية الموجودة فى بلاد بعيدة أو من مسئولين بنجال يحاولون التوصل إلى صياغة الخطوط العريضة للسياسة التى سوف ينتهجونها. وفى وسط هذه الأجواء الساخنة والمليئة بالإثارة شعرت بنفسى كجزء من دولة بنجلاديش المستقلة بالفعل، فلم يكن هناك أية أثر لپاكستان فى أذهان جميع الأفراد فى منزل «كريم».

وفى غمرة النشوة من الأحداث المحيطة، لمحت رجلاً تبدو على قسماته الجدية والصرامة وكان منشغلاً فى كتابة شىء ما، إنه الأستاذ « س. أ. كريم » نائب الممثل الدائم لدولة باكستان لدى الأمم المتحدة، وكان قد وصل من نيويورك فى صباح ذلك اليوم. وأخيراً حدث ما كنت أتطلع إليه، فقد أراد الأستاذ « س. أ. كريم » أن يقرأ

(*) فى عام ١٩٧٠م، عقدت فى پاكستان انتخابات عامة تحت الحكم العسكرى، تمكن فيها «حزب عوامى» - الذى مقره شرق پاكستان- بقيادة الشيخ «مجيب الرحمن» (والمعروف بالشيخ مجيب) من النجاح بأغلبية ساحقة لمقاعد البرلمان القومى، ولكن الجيش الذى يتكون بالكامل تقريبًا من ضباط وجنود من غرب پاكستان رفض السماح لحزب «عوامى» من تكوين الحكومة. وفى الخامس والعشرين من شهر مارس لعام ١٩٧١م، اتخذ الجيش إجراءات صارمة ضد الحزب؛ الأمر الذى ترتب عليه قيام الشعب فى الجزء الشرقى لپاكستان بإعلان استقلال پاكستان الشرقية ومقاومة الجيش الپاكستانى. وأطلق عليه حرب التحرير لتكوين دولة جديدة بـ « بداية بنجلاديش» .

علينا ما قام بكتابته، وعلى الفور تجمع كل من بالمنزل حوله، وهو كان قد انتهى لتوه من صياغة مسودة لدعوى موجهة إلى جميع رؤساء الحكومات لكى يمارسوا نوعًا من الضغط على حكومة پاكستان لتتوقف فورًا عن حرب التطهير العرقى التى تمارسها فى بنجلاديش.

وخشية أن تبدو المظاهرة المزمعة على نحو ضعيف فقد حاولت باستمرار التحرى عمن سيكون المسئول الرئيس عن نشاط اليوم التالى فى «كاپيتول هيل»، وما هى الترتيبات التى تم اتخاذها؛ هل سيقوم أحد بإعداد لافتات تعبر عن موقفنا وحملها أمام كاميرات التلفاز؟ لا يبدو أن أحدًا بمنزل عناية كريم على دراية بمدى الاستعدادات التى تم اتخاذها فى هذا الصدد؛ ولذا فكرت فى الأخذ بالمبادرة، فذهبت إلى أحد المتاجر الكبرى واشتريت كميات من الأوراق الملونة ومواد وفرش للتلوين. وفى الحال قمت بعمل مجموعة من الأشرطة مستفيدًا من المهارات الفنية التى تعلمتها عندما كنت تلميذًا فى مدرسة شيتاجونج.

ووصل «شمس البارى» وهو أستاذ يقوم بتدريس اللغة البنجالية فى جامعة شيكاجو، وقد عرفته منذ فترة طويلة تعود إلى سنوات الدراسة بالجامعة فى دكا، وساعد كفاحنا من أجل «حرب التحرير» على تجميعنا من جديد حيث واصلنا العمل جنبًا إلى جنب طوال فترة الحرب. ومع حلول المساء تجمع أناس كثيرون بمنزل «عناية»؛ بعضهم قلق بشأن أسرهم فى بنجلاديش، والبعض أراد الحصول على مزيد من المعلومات عن الوضع فى دكا، والبعض يتساءل عما فى مقدورهم عمله للمساعدة. وقضينا الليلة فى محاولة تحليل الوضع والتوصل إلى اتفاق على استراتيچيتنا لليوم التالى، وتلخصت فى نقطتين أساسيتين؛ **فأولاً**: أن نقوم بإيصال الدعوى إلى كافة السفارات ورؤساء الحكومات، **ثانيًا**: تنظيم المظاهرة أمام «كاپيتول هيل».

وعاملتنا زوجة السيد «عناية» بحفاوة بالغة، فشعرنا كما لو كنا من أصدقائها المقربين؛ فأكلنا أصنافًا من الطعام المطهى بالبخار، بينما كنا نتعاقب فى لعن وسب تحركات الجيش الپاكستانى وإلقاء بعض أشعار «طاغور».

فى اليوم التالى ـ التاسع والعشرين من مارس ـ صحوت من نومى على صوت صياح، وبسرعة لبست ملابسى وانطلقت إلى غرفة الاستقبال بالأسفل حيث

وجدت شخصًا قصيرًا وبدينًا وملتحيًا يعطى السيد «عناية» محاضرة بصوت مرتفع، وقد ازدحمت الغرفة الصغيرة بخمسة أو ستة أفراد. وكان هذا الرجل الضئيل يتصرف بوقاحة بالغة حيث استمر فى توجيه الاتهامات إلى السيد «عناية» والآخرين من موظفى السفارة الرسميين - فاتهمهم بكونهم خونة وعملاء. وشاهدت بقية الأفراد بالحجرة وقد ارتدوا أزرارًا مطبوعًا عليها اسم بنجلاديش بخط واضح. وتكشف لى أن هؤلاء الزوار كانوا قد أتوا من هارڤارد وغيرها من المؤسسات فى بوسطن للمشاركة فى المظاهرة، وكم كان غضبهم عنيفًا لاكتشافهم قرار موظفى السفارة البنجاليين بعدم المشاركة فى المظاهرة. أما الرجل الضئيل فكان الدكتور «محيى الدين علمجير» ؛ وهو حاصل على درجة الدكتوراه حديثًا من جامعة هارڤارد، وأصبح فيما بعد من أعز أصدقائى، هذا الرجل لم يدخر أية كلمة قاسية إلا ووجهها إلى السيد «عناية».

حاولت من جانبى الدفاع عن مضيفى شارحًا كيف أن رجال السفارة البنجال قاموا بالاتصال بجميع المسئولين من ذوى الحيثية فى أمريكا الذين فى إمكانهم تقديم نبذة عما يجرى فى مسرح الأحداث، وكيف أنه من الحكمة لرجال السفارة المحافظة على مناصبهم العليا فى الحكومة حتى يكونوا غصة فى حلق الحكومة الپاكستانية فلا تتمكن من إطلاق يدها للبطش بأهل البنجال فى شرق پاكستان. ولكن «علمجير» لم يتفق معى، فهو يرى أن ما أقوله ما هو إلا كلامًا معسولاً يتشدق به أناس جبناء ليست لديهم الرغبة من المشاركة فى إحداث ضغوط نحو التطوير ؛ وإنما جل ما هم حريصون عليه هو الحفاظ على مصالحهم الشخصية التى تضمن لهم الإبقاء على نمط الحياة المرفه الذى يحيونه، وانتهى اللقاء السخيف على هذا النحو من عدم القناعة حتى يوم الرابع من أغسطس الذى كشف فيه الدبلوماسيون البنجال لدى السفارة الپاكستانية عن انتمائهم وشاركوا الحكومة البنجالية من مواقعهم فى الغربة.

وفى ذلك المساء أتى البنجاليون من كل حدب وصوب ؛ وخاصةً من ولايات واشنطن ونيويورك وديترويت، للتجمع أمام أعتاب الكونجرس الأمريكى للتظاهر. ولم أتمكن من إخفاء تعجبى فى ذلك اليوم لمرأى عدد كبير من عمال مصانع ديترويت البنجال الذين تعود أصولهم إلى مقاطعة «سيلهت» البنجالية. ولم يكن أحد منا على

علم بما ينبغى عمله ولا إلى أين يتم التوجه؛ فلم نحصل على إذن رسمى من السلطات الأمريكية بالتظاهر. ولم نزل فى حيرة من أمرنا حتى وصل «شمس البارى» حاملاً التصريح المطلوب، فصرخت بأعلى صوتى: «هذا هو قائدنا، فلنصطف خلفه لنبدأ المظاهرة».

تم كل شىء كالسحر؛ فبدت المظاهرة على أعتاب «كابيتول هيل» كحدث ضخم، وتمكنا من جذب اهتمام المشرعين وصناع القرار الأمريكى، واستغرقنا بعض الوقت لإفادتهم بموجز عن الموقف فى بنجلاديش ولطرح مطالبنا. وقامت وكالات الأنباء بتغطية فعّالة للحدث؛ فغطت كاميرات التلفاز ساحة المظاهرة، وقامت بإجراء مقابلات فى موقع الحدث.

وأخيرًا، وفى مساء ذلك اليوم تجمعنا كلنا فى مقر إقامة مسئول آخر بالسفارة الپاكستانية وهو الأستاذ «أ. م. عبد المغيث» ـ المستشار الاقتصادى بالسفارة. ودار هناك جدل ساخن حول إمكانية تنسيق الجهود البنجالية بالولايات المتحدة وعملية نقل التبعية الرسمية للدبلوماسيين البنجال. وتكررت ملامح المشهد الذى استيقظت عليه صباح ذلك اليوم وإن كانت بشكل أكثر حدة بين أفراد هذا التجمع الضخم؛ فالتساؤل المطروح بإلحاح هو «لماذا لا يقدم رجال السفارة البنجال على ترك مناصبهم فى السفارة الپاكستانية فى الحال؟» وانصرف الجميع بعد العشاء مدركين حاجتنا الملحة إلى توحيد وتنسيق جهودنا، ونحن على قناعة تامة بعدم جدارة الدبلوماسيين البنجال للأخذ بالمبادرة وتوفير القيادة اللازمة. وبذلك بدأت أشكك فى قناعتى بما تبنيته سابقًا من حجج تبرر بقاء الدبلوماسيين البنجال تحت سلطة السفارة الپاكستانية.

وفى الثلاثين من مارس خُولت أنا و«شمس البارى» مسئولية زيارة جميع السفارات ومقابلة جميع السفراء أو ممثليهم لشرح قضيتنا وللمطالبة بالاعتراف الرسمى بدولة بنجلاديش كدولة مستقلة. وكانت هذه التجربة غاية فى المتعة والتشويق بالنسبة إلىّ؛ فقد قمنا بزيارة العديد من السفارات فى يوم واحد، لكل منها طابع مميز فى كيفية استقبالنا، وإن كانت هناك مجموعة من الأسئلة المشتركة مثل: هل تعملون لمصلحة منظمات رسمية فى أمريكا؟ كيف يتسنى لنا الاعتراف بدولة لا حكومة رسمية لها؟ هل يتم مساندتكم من قبل دولة أجنبية ما؟ ما هى مناصب ودرجات دبلوماسى

السفارة البنجال بالولايات المتحدة؟ وهل يقومون بمساندتكم؟ ومتى سيخرجون من مخابئهم ليعملوا علانية؟ ما هى نسبة السكان البنجال الذين يريدون وطنًا مستقلاً فى پاكستان الشرقية؟

سؤال واحد محير وصعب علينا الإجابة عليه وهو: هل لديكم حكومة تريد ذلك؟ ومن ثم قررنا ـ أنا وشمس البارى ـ حتمية تكوين حكومة ممثلة لنا فى الحال. . . . . ولكن كيف يمكن لنا تكوين هذه الحكومة فى بنجلاديش، بينما نحن ما زلنا بالولايات المتحدة؟

حضرتنى فكرة أن أقوم بالسفر إلى «كلكتا» وانتقاء بعض الأفراد ليقوموا بتكوين حكومة، ثم يعلنون على مسمع من العالم أجمع تكوينهم لحكومة بنجالية؛ وبهذا يكون لنا دولة وحكومة. وحظيت الفكرة بتأييد «بارى» وقررنا أن أقوم بالسفر إلى «كلكتا» فى اليوم التالى. كما خطرت ببالى استراتيچية أخرى ضرورية ألا وهى القيام بتأسيس محطة إذاعية لبث برامج بنجالية تساعد على نشر الوعى لدى الشعب البنجالى بحقيقة ما يجرى من أحداث، وما الذى ينبغى عليهم عمله. وفكرت أن تكون هذه المحطة بمثابة مُحَول يتم إقامته على هدف متحرك داخل الأراضى البنجالية، ويمكن تحريكه إلى الحدود الهندية فى حال تم رصده من قبل الجيش الپاكستانى. وكان متوفراً لدىّ حينئذ مبلغ ستة آلاف دولار؛ وهو مبلغ كاف لدفعه كعربون لهذا المحول.

وكانت لنا بعض المطالب الخاصة من سفارات مجموعة من الدول المجاورة لبنجلاديش؛ فطلبنا من سفارة بورما على سبيل المثال أن تبقى حدودها مفتوحة أمام الفارين البنجال من بطش الجيش الپاكستانى، ونحن من جانبنا سوف نسعى لتوفير ميزانية لإطعام هؤلاء اللاجئين. كما طلبنا من سفارة سيريلانكا ألا تقوم بمنح حق الهبوط لأية طائرة عسكرية پاكستانية، إلى جانب إيقاف الرحلات الجوية المدنية بين پاكستان وبنجلاديش، حيث كان من المعروف لدينا استخدام پاكستان للطائرات المدنية فى نقل أفراد الجيش والأسلحة والذخيرة من كراتشى إلى دكا.

أما فى السفارة الهندية فقد عوملنا كدپلوماسيين رفيعى المستوى، وأراد موظفو السفارة أن يتعرفوا من خلالنا على أوضاع الدپلوماسيين البنجال فى السفارة

الپاكستانية، وأن يعرفوا شيئًا عن قيادة تنظيمنا وما إذا كنا أعضاءً فى منظمات رسمية فى الولايات المتحدة. ومن جانبنا، فقد طالبنا السفارة الهندية بفتح حدودها ـ كما هو الحال مع سفارة بورما ـ أمام اللاجئين البنجال مع منح بعضهم حق اللجوء السياسى بـ «بكلكتا» دون قيود، بالإضافة إلى التخفف من القواعد الخاصة بتأشيرات السفر الهندية للبنجاليين حاملى جوازات سفر پاكستانية.

وفى تلك الليلة كانت لنا مناقشة أخرى مثيرة بشأن تكوين حكومة بنجالية، وبتروٍّ تمكنا من صياغة خطة أولية مفادها قيام « م. أ. حسن» بالسفر فورًا إلى « كلكتا وأجراتالا» لعمل مفاوضات مبدئية مع القيادات السياسية الفارة من بنجلاديش، وعندما ينتهى من هذه المفاوضات يرسل لى إشارة متفقًا عليها لكى ألحق به، ونقوم بتكوين الحكومة الجديدة.

وبينما كنا نتناول طعام العشاء حضر السفير الپاكستانى «أجا هلالى» فى تلك الليلة إلى منزل «عناية» فى زيارة ودية، فقام معظمنا بالاندفاع إلى الغرفة العلوية حاملين طعامنا معنا، ولبثنا فى مكاننا دونما حراك أو صوت مدة ساعتين، وذلك خوفًا من أن يعلم السفير الپاكستانى بأمر إيواء زميله البنجالى ـ عناية ـ لثلاثة من المناهضين النشطين للنظام الپاكستانى فى منزله.

وفى اليوم التالى سافر «حسن» إلى كل من كلكتا و أجراتالا كما هو مخطط، وأرسل لى من كلكتا رسالة مريرة تعبر عما لاقاه من إحباط من قبل القيادات البنجالية ونصحنى بعدم الحضور. وأعقب ذلك بفترة وجيزة تكوين حكومة «مجيب نجار»، ومن ثم تحول تركيز البنجاليين فى كلٍّ من الولايات المتحدة وكندا إلى القيام بحملات للاعتراف بحكومة بنجلاديش الجديدة وإيقاف المساعدات العسكرية إلى پاكستان وتحرير الشيخ «مجيب».

وتم تكوين رابطة للبنجال المقيمين فى الولايات المتحدة فى مدينة نيويورك تحت قيادة الطبيب «محمد علمجير» ، كما تم تأسيس « رابطة الدفاع البنجالية» فى شيكاجو بدعم من الدكتور «ف. ر. خان» وهو فنان بنجالى حامل الجنسية الأمريكية وهو مصمم برج «سيرز» بشيكاجو، وتم تعيين «شمس البارى» نائبًا له، الذى قام بإصدار أول عدد

لصحيفة بنجالية، قمت أنا بعدها بتولى مسئولية إصدارها بشكل منتظم من شقتى فى «ناشفيل» الكائنة برقم ٥٠٠ طريق «باراجون ميلز» . وأضحت شقتى مركزاً للاتصالات حيث بت أستقبل مكالمات من جميع أنحاء أمريكا الشمالية والمملكة المتحدة؛ فكل البنجال يريدون معرفة آخر تطورات الحرب.

وتمكنا من تأسيس «مركز بنجلاديش للمعلومات» بفضل الجهود التى بذلها المواطنون البنجال فى واشنطن، ووظيفة هذا المركز هو ممارسة الضغوط داخل مجلسى النواب والشيوخ. وتوليت مسئولية إدارة «مركز بنجلاديش للمعلومات» فى فترته التمهيدية، ثم انطلقت بعدها إلى الشارع لتنظيم وإلقاء المحاضرات وعقد ورش عمل داخل مختلف الجامعات الأمريكية.

وخلال التسعة أشهر التالية تمكنا من رسم صورة واضحة لمستقبل بنجلاديش؛ فأردنا أن نرسى دعائم الديمقراطية. . . أردنا أن نضمن حق الشعب فى انتخابات حرة ونزيهة. . . وحقه فى حياة خالية من الفقر. . . حلمنا بتحقيق السعادة والرفاهية لكل أفراد الشعب. . . . حلمنا بدولة تقف شامخة فى عزة وكرامة فيما بين دول العالم.

وفى السادس عشر من شهر ديسمبر لسنة ١٩٧١م، انتصرت بنجلاديش فى حربها لنيل الاستقلال، وإن كانت قد دفعت فى مقابل هذا النصر ضريبة ثقيلة؛ فثلاثة ملايين بنجالى لقوا حتفهم، وعشرة ملايين فروا من البلاد سعيًا وراء تأمين عيشة آمنة لدى الدولة الجارة الهند، وملايين أخرى كانوا ضحايا للوحشية والاغتصاب من قِبَل الجيش الپاكستانى.

ومع نهاية الحرب كانت بنجلاديش قد أصبحت دولة معدمة ومخربة تمامًا؛ فاقتصادها قد تمزق، وملايين من الناس فى حاجة إلى إعادة توطين.

أدركت عندها أن واجبى تجاه وطنى يحتم علىّ العودة إليه والمشاركة فى إعادة تعميره؛ فهذا دين علىّ تجاه ذاتى. . .

* * *